﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾ [العنكبوت: 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان فضلِ ما يدعو إبراهيم قومه إليه، وفسادُ ما هم عليه

بعد أنْ أمَرَهم إبراهيم ﷺ بعبادةِ اللّهِ وتوحيده وتَقْواه؛ نهاهم عن عبادةِ الأصنامِ، بأنْ قرّر لهم ما هم عليه من الضّلال، وبيَّن لهم نَقْصَ أوثانهم وعجزها، وعَدَمَ استِحقاقِها للعبوديَّةِ، فقال: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡثَٰنٗا﴾: (وثن) كَلِمةٌ واحِدَةٌ، والوَثَنُ: حجارةٌ كانتْ تُعبد، وَأَصْلُها قَوْلُهُمُ اسْتَوْثَنَ الشّيْءُ: قَوِيَ[2]، والواثنُ: الثّابتُ الدّائم، والوَثَنُ: الصَّنَمُ[3]، وقيلَ الوثن: الصَّنَمُ الصَّغيرُ، والوَثَنُ: الصَّليبُ، وقيلَ: سُمّي وَثَنًا لانْتِصابِه وثَباتِه على حالَةٍ واحِدَةٍ، من وَثَنَ بالمَكانِ أقامَ بِهِ، فهوَ واثِنٌ[4]، ومعنى الوثن في الآية موافقٌ للمعنى اللّغوي، أي صورَةٌ مِنْ حَجَرٍ أوْ خَشَبٍ مُجَسَّمَةٍ على صورَةِ إنْسانٍ أوْ حَيَوانٍ كانوا يعبدونها[5].

2) ﴿وَتَخۡلُقُونَ﴾: أصلُ (خلق) تَقْديرُ الشّيْءِ[6]، ويُستعملُ في إبداعِ الشّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، وهو بهذا المعنى يختصُّ بالباري تعالى والخَلْقُ لا يُستعمَلُ في كافّة النّاس إلا على وجهين:

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 311، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 628.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وثن).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (وثن).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وثن).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).

أحدهما في معنى التّقدير، والثّاني بمعنى الاختلاق وهو الكذب، كما هو الحال هنا في هذه الآية ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[1]، فمعنى ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ هنا تكذبون، أو تصنعون وتنحتون أصنامًا بأيديكم تسمّونها آلهة[2]؛ وتضعون لها أخبارًا ومناقبَ وأعمالًا مكذوبةً موهومةً[3].

3) ﴿إِفْكًا﴾: أصلُ (أفك) يدلُّ على قَلْبِ الشّيْءِ وَصَرْفِهِ عَنْ جِهَتِهِ، والْإِفْكُ: الْكَذِبُ[4]، وأفَكْتُه عن الأمر: صرفته عنه بالكذبِ والباطل[5]، والإفكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهه الّذي يحقّ أنْ يكونَ عليه[6]، كالصّرفِ عن الحقّ في الاعتقادِ إلى الباطل، ومِن الصدقِ في المقالِ إلى الكذب، ومِن الجميلِ في الفعل إلى القبيح[7]، والمقصودُ بالإفكِ هنا: الكذب[8]، أي: وتخلقون كذبًا في صرفِ عبادتكم إليها واستحقاقِها العبادة[9].

4) ﴿فَٱبْتَغُواْ﴾: (بغي) أصْلانِ: أحَدُهُما طَلَبُ الشَّيْءِ، والثّاني جِنْسٌ مِنَ الْفَسادِ[10]، بَغَيْتُ الشّيْءَ: طَلَبْتُهُ، وابْتغى الشّيْءَ: أرادَهُ وَطَلَبه، والبُغْيَةُ: الْحاجَةُ[11]، والبَغْيُ: طلبُ تجاوزِ الاقتصادِ فيما يتحرّاه الشّخص، تجاوزَه أمْ لمْ يتجاوزْه، وابتغى: افتعالٌ من البغي بمعنى الطلب، يُقال: بَغَيْتُ الشّيء: إذا طلبتُ أكثرَ ما يجبُ، وقد غلبَ اختصاصها للاجتهاد في الطلب؛ فإنْ كان ذلك المطلوبُ محمودًا فابتغاؤه كذلك، وكذا عكسه[12]، ومعنى ﴿فَٱبْتَغُواْ﴾: فالتمسوا عند اللّه الرّزق، واطلبوه منه، واصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إليه، فإيّاه فاسألوه وحده دون غيره تدركوا ما تبتغون من ذلك[13].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (خلق).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 19، والقُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 335، والبَيضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 191.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفك).
(5) الخليل، العين: (أفك).
(6) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 101.
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 24.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.
(9) الماتُريديّ، تأويلات أهل السنّة: 8/ 215.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (بغي).
(12) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (بغي).
(13) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 20، والقُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 336، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 117.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيّن القرآنُ إرشادَ إبراهيم قومَه إلى فضلِ ما يدعوهم إليه، وفسادِ ما هم عليه بالقول: ما تعبدون من دون الله إلا تماثيل صنعتموها بأيديكم، وتكذبون حين تسمّونها آلهة، وتدّعون أنّها تشفعُ لكم عند ربكم، ثم زادَ في النّعي عليهم والتّهكّمِ بهم، وبيانِ أنّ ذلك لا يجديهم نفعًا بالقول: إنَّ أوثانكم الّتي تعبدونها لا تقدرُ أنْ ترزقكم شيئًا من الرزق الّذي لا قوامَ لكم بدونه، فكيف تعبدونها؟ ثم ذكرَ لهم من ينبغي أنْ يعبدوا بالقول: فالتمسوا الرّزق عند الله لا عند أوثانكم تدركوا ما تطلبون، واعبدوه وحده، واشكروا له نعمه عليكم مستجلبين بذلك المزيدَ من فضله، فاستعدّوا للقائه تعالى بالعبادة والشّكرِ له، فإنّكم إليه ترجعون فيسألكم عمّا أنتم عليه من عبادتكم غيرَه، وأنتم عبادُه وخلقُه، وفي نعمه تتقلّبون، ومن رزقه تأكلون[1].

بيانُ إبراهيم عليه السلام فسادِ عبادتهم لأوثانٍ عاجزة

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة الجملة الخبريّة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ جملة خبريّة، وفائدةُ الخبر: إفادةُ المخاطَب الحكمَ الّذي تضمّنته الآية، وهو بيانُ حقيقة ما يعبدونه، وأنّها صورٌ لا روحَ فيها، ولا تَستَحِقُّ شَيئًا مِن رُتبةِ الألوهيَّةِ، فهي مصنوعةٌ بأيديكم، وأنتم من سميتموها آلهةً، واختلقتم الكذب بالأمرِ بعبادتها، وأنها ناقِصةٌ وعاجِزةٌ، لا تَستطيعُ أنْ تَرزُقَكم أيَّ شَيءٍ مِن الرِّزقِ، وغرضُ هذا الخبر الوعظُ والتّذكير، والتّنفير من فسادِ ما هم عليه من باطلٍ، ولذلك ختمَ الآية بأنْ أمرهم بعبادةِ الله وحده، فالرزقُ منه وَحْدَه، وإليه وحده الرجوعُ للحساب يوم القيامة.

وَعْظُ إبراهيم قومَه من خلالِ بيانِ حقيقة ما يعبدونه وعدمِ استحقاقها العبادة

(1) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 125.

بلاغةُ الفصل الآية عما قبلها:

فَصَلَ النّظم الحكيم جملةَ ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ عمّا قبلها، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بينهما من كمال اتّصال؛ إذ جاءتِ الجملةُ تعليلًا لجملة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾[1]، أي: علّل أمره لهم بعبادةِ اللّه وتوحيده، بأنّ ما يعبدونه من دون اللّه أوثانٌ لا تستحقُّ العبادة.

تعليلُ الأمرِ بعبادةِ الله لأنّ ما يعبدونه أوثانٌ لا تستحقّ العبادة

دلالةُ الفعل المضارع ﴿تَعۡبُدُونَ﴾:

التّعبير بالفعل المضارع ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ إشارةٌ لحالِ قومِ إبراهيمَ ﷺ مِنَ الإصرارِ على عبادةِ أوثانٍ لا تضرّ ولا تنفع، وذلك باستمرارهم على هذه العبادة وتجدُّدها منهم، وكذلك أفاد المضارع تصويرَ خضوعهم وذلّهم لها، بما يحملُ النّفس على النّفور ممّا هم فيه، والرّجوع إلى الحقّ، ففي التّعبير بالمضارع استحضار لبشاعة الجرم الّذي هم عليه.

تصويرُ استمرارِ إصرارِ قومِ إبراهيمَ على عبادة ما لا يضرّ ولا ينفع لتنفيرهم من ذلك

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها:

يحتمل أنْ تكون ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ للتّوكيد، إنْ كانت ﴿دُونِ﴾ بمعنى غير، والمعنى: إنّما تعبدون أوثانًا غيرَ اللّه، وهذا على الوجه القائل بأنّ قوم إبراهيم كانوا كفارًا، أو ابتدائيةً، إنْ كانت كلمة ﴿دُونِ﴾ اسمًا للمكانِ المُباعِدِ، فهي إذن مُستعارةٌ لمعنى المخالفة، والمعنى: إنّما تعبدون أوثانًا موصوفة بأنّها مخالفةٌ لصفاتِ اللّه[2]، وهذا على الوجه القائل بأنّ قومَ إبراهيم كانوا مشركين.

إفادة التوكيد في الاحتقار والدونية لكلّ مَن يعبد ما سوى الخالق العظيم

سِرّ ذكر الظرف في ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

التّعبير بلفظ ﴿دُونِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يفيدُ معنى الدونيّة والاحتقار يومئُ باحتقارِ من يعبدون الأوثان، وهي

لا ظلمَ أشنعُ من وضعِ الأخسّ موضعَ الأشرف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.

باطلٌ ليسَ له في ذاته إلا العدم، ويتركون عبادةَ اللّه الّذي هو فوقَ كلِّ شيءٍ بقهره وسلطانه، وكلّ ما سواه سافلٌ حقير، تحت قهره وأمره، فلا ظُلمَ أشنعُ من وضعِ الأخسِّ موضعَ الأشرف.

سِرّ الإظهار في موضع الإضمار لاسم الجلال:

الـكـفـرُ بـالـلـه الأعـــلى الّـــذي دونه كلُّ شيء؛ دليلٌ على شدّة الضّلال

أظهرَ البيانُ الحكيم الاسمَ الجليل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولم يأتِ بضميره، رغم أنّه قد سبقَ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ وذلك للمبالغة في إظهارِ ضلالِ قومِ إبراهيم بعبادتهم أوثانًا؛ هي في نفسِها صورٌ وتماثيلُ مصنوعةٌ لا روحَ فيها[1]، وإعراضهم عن عبادةِ اللّه الأعلى من كلِّ شيء، الجامعِ لكلّ صفاتِ الكمال الّذي لا شبيهَ له ولا نظير، ولا ثاني ولا وزير[2]، كما أنّ في التّصريح بالاسم الجليل تربيةً للمهابةِ والتّعظيم في النّفوس، بما يكون رادعًا عن كفرهم أو شركهم.

إيثار التّعبير بلفظ الأوثان دون غيره:

دلالةً على أنّ كلّ ما يُعبدُ من دون الـلـه أوثـــانٌ لا تستحقّ العبادة

عبّر البيانُ القرآني بلفظ (الوثن) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ دون غيره من الألفاظ كالصنم مثلًا؛ لأنّه أعمّ، إذ يشملُ كلّ ما عُبد من دون اللّه، سواءٌ كان منحوتًا، أو غير منحوت كشجرٍ وحجر، وسواءٌ كان له جسمٌ أو صورة أو لم يكن له جسمٌ أو صورة، فيُطلقُ الوثنُ على الصّليب وعلى القبر وعلى الإنسان إذا عُبدَ من دون اللّه[3]، وفي التّعبير بلفظ ﴿أَوۡثَٰنٗا﴾ إشارةٌ إلى تفرّق الهمم بكثرةِ المعبود، فمادة (وثن) بجميع تقاليبها تدورُ على الزيادة والكثرة والفُرقة والرّخاوة، وهذه المعاني تتناسبُ مع دونيّة هذه الأوثان، فلا ينبغي لرتبةِ الألوهيّة أنْ تتصف بهذه المعاني[4].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 34.

(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 407.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (صنم)، والزَّبِيديّ، تاج العروس: (وثن)، والهَرَوِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 385.

(4) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/ 544 - 545.

بلاغةُ التّعبير بـ﴿إِنَّمَا﴾:

قَصْرٌ فيه إبطالٌ لاعتقادهم أُلوهيّةَ ما يعبدونه من أوثان أو شراكتها

﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أداةُ قَصْرٍ؛ وهو هنا قصرُ موصوفٍ على صفة؛ فقد قَصَرَ عبادتَهم على عبادةِ أوثان، وهو قَصْرٌ قد يكونُ حقيقيًّا، إذا كان قومُ إبراهيم لا يعبدون اللّه، أي: كانوا كافرين به إطلاقًا، بمعنى أنّهم يرَون أنَّ أوثانهم هي الإلهُ الحقّ، وهذا القصرُ مُنصبٌّ على قوله ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: إنّما تعبدون غيرَ اللّه، أو قد يكون قصْرَ قَلْبٍ، إذا كان قومُ إبراهيم مشركين، أي: يعبدون اللّهَ ويشركون أوثانهم في العبادة[1]، فهُمْ مثلُ مشركي العرب، فيكون القصرُ منصبًّا على عبادتهم الموصوفة بالوثنيّة، أي: يكون القصرُ قصرَ قلبٍ لا قصرَ صفة، وذلك لإبطالِ اعتقادهم أُلوهيّةَ تلك الأوثان الّتي يشركونها مع اللّهِ في العبادة[2]، جرًّا لهم نحو الإيمان، وفي كلتا الحالّتين يخاطبُ إبراهيمُ قومه بأسلوبٍ قويٍّ شديد.

دلالةُ العطف في ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾:

بيانٌ لفساد اعتقادهم بالّذين يعبدونهم من دون اللّه، إذ ما هو إلا كذبٌ وزورٌ اختلقوه

في عطف جملة ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ على جملة ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ بيانٌ لفسادِ ما هم عليه من العقيدة من جهتين؛ من جهة أنّهم يعبدون من دون اللّه أوثانًا، ويعدلون بها عن عبادة اللّهِ، ومن جهةٍ أخرى أنّهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهانٍ أو دليل، وإنّما يختلقون إفكًا وينشئون باطلًا[3]، ففي العطف جمعٌ بين شناعةِ عبادتهم لغير اللّه، وبين شناعةِ افترائهم الكذبَ في جعلِ هذه الأوثان مستحقّةً للعبادة، وجَعْلِها شركاءَ للّه أو شفعاءَ إليه، فأفاد العطف أنّ الّذين يعبدونهم من دون اللّه ويزعمون أنّهم شفعاؤهم عند اللّه ما هو إلا كذبٌ وزورٌ بلا دليلٍ أو برهان.

---

(1) قد وصفهم الله بالشّرك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام: 78].
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/ 544.

إيثارُ التّعبير بـ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ مادة وصيغة:

تصويرُ شناعة استمرارهم على عبادة أصنامٍ نحتوها واتّخذوها آلهة كذبًا وافتراءً

اختار النّظم الحكيم التّعبير بفعل ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ دون غيره، فلم يقل مثلًا: (تُكَذِّبون)؛ لكونه أبلغَ وأنسبَ للسّياق والمقام؛ فلفظُ (خلق) في أصله يُستعملُ في إبداعِ الشّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، ويأتي بمعنى التّقدير، وبمعنى الاختلاق، أي: الكذب[1]، وهذه المعاني تتناسبُ مع السّياق الّذي يَنْعَى عليهم عبادتهم لغيرِ الله، وتتناسبُ مع حالهم من إحداثِ الكذب واختراعِه من عند أنفسهم بلا سابقةٍ أو مقدّمة، وينشئونه إنشاءً بلا أصلٍ ولا قاعدة، وكيف كانوا يصنعون وينحتون أصنامًا بأيديهم ويسمّونها آلهة كذبًا وافتراءً، وقد جاء الفعل بصيغة المضارع ليدلّ على استمرارهم في الاختلاق والكذب، وليصوّر شناعة فعلهم هذا الّذي تَنْفِرُ منه النّفوس.

سِرّ التّعبير بلفظ (الإفك) مادةً وصيغةً:

أسوأُ الكذبِ وأشنعُه ما يتعلّق بوحدانية الله تعالى

عبّر البيانُ القرآني بلفظ الإفك في قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾؛ لكون الإفكِ أسوأ الكذب، وذلك زيادةً في التّشنيع عليهم، إذ هو كذبٌ يتعلّق بوحدانيّة الله سبحانه؛ فجعلوا هذه المنحوتات الّتي صنعوها بأيديهم آلهة، وهذا صرفٌ للأمرِ عن وجهه، وقد سُمّي الكذب إفكًا؛ لأنّه مأفوك؛ أي: مصروفٌ عن وجهه، فهم صرفوا عبادتهم إليها وجعلوها مستحقّة للعبادة، والحقيقة أنَّ المستحقّ للعبادة هو الله وحده، ويجوز في الإفكِ هنا أنْ يكون مصدرًا، والمعنى: تكذبون كذبًا، وأنْ يكون صفة؛ أي: خُلُقًا إفْكًا؛ أي: ذا إفكٍ وباطل[2]، وكلا الإعرابين تأكيدٌ على بطلان فعلِهم وشناعته.

الغرض من التّنكير:

نكّر البيان الإلهيّ لفظ ﴿إِفْكًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾؛

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (خلق).
(2) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 385.

لتهويلِ هذا الإفك الّذي اختلقوه، فهو كذبٌ عظيم إذ يتعلّق بوحدانيّة اللّه، وأنْ جعلوا له شركاءَ يعبدونهم، وفي هذا تشنيعٌ من إبراهيم على قومه، وتنفيرٌ من هذا الباطل الّذي اختلقوه، ومِن تَسميَتِهمُ الأوثانَ آلهةً وشركاءَ للّه.

تـهـويـلُ الإفـك الّـذي اختلقوه تشنيعًا عليهم وتنفيرًا لهم منه

بلاغةُ الفصل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ﴾:

فَصَلَ النّظم الحكيم جملةَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ عمّا قبلها، وهي جملة ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ لواحد من أمرين: **الأوّل:** لِما بينهما من كمالِ اتّصالٍ؛ لأنّها جاءتْ بيانًا لشَرّيّةِ ما يعبدونَه من حيثُ إنَّه لا يكادُ يجُديهم نفعًا؛ فلا يقدِرون على أنْ يرزقوهم شيئًا من الرِّزقِ[1]، أو أنّها جاءت تفصيلًا لِما أجمله القرآنُ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[2]، **والثّاني:** لِما يمكن أن يكون تعليلًا باعتبار أنّ قومَ إبراهيمَ يَعترِفون للّهِ تعالى بالألوهيَّةِ والخلْقِ والرِّزقِ، ولكنَّهم يَجعَلون له شُركاءَ في العِبادةِ ليَكونوا لهم شُفعاءَ، كحالِ مُشركي العرَبِ؛ أي: هو المُستحِقُّ للعِبادةِ الّتي هي شُكْرٌ على نِعَمِه، وإنْ كان قومُه لا يُثبِتون ألوهيَّةً لغيرِ أصنامِهم، كانتْ جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّةً مُستأنَفةً؛ إبطالًا لاعتقادِهم أنَّ آلهتَهم تَرزُقهم، وما يُرجِّحُ هذا الاحتمالَ التَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾[3].

دونـيّـة مـا يـعـبـدون من دون الله إذ لا يـمـلـكـون لـهـم رزقًا ولا نفعًا

بلاغة التّوكيد في قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾:

أكّد البيانُ القرآنيُّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بعدّة مؤكِّدات، وهي ﴿إِنَّ﴾ الّتي تفيدُ التّوكيد، والجملة الاسميّة الّتي تفيد

المبالغةُ في تأكيد عدم استحقاق الأوثان للعبادة تـنـفـيـرًا مـن عبادتها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 34.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 224.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.

الثّبات والاستمرار، والاسم الموصول الّذي يفيد العموم، وذلك لإفادة المبالغة في تأكيد أنّ كلّ الأوثان الّتي يعبدونها من دون الله لا تستحقّ العبادة، فهي لا تملكُ لعابديها النّفعَ والرّزق، فكان هذا التّأكيد ردًّا لِما كانوا يتوهّمونه من نفعها وضرّها، ومن ثَمّ كان تنفيرًا لهم من عبادتها، ودفعًا لهم إلى عبادة الله وحده مالك النّفع والرّزق.

سِرّ التّعبير بالاسم الموصول مجموعًا:

جميعُ المعبودات من غير اللهِ عاجزةٌ مهما تنوّعت صورها

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾، ولم يُعبّرْ بالاسم الظاهر (الأوثان)، فلم يقلْ: إنّ الأوثانَ لا يملكون لكم رزقًا؛ لأنّ دلالة الاسم الظّاهر (الأوثان) دلالةٌ قاصرةٌ حاصرةٌ لهذا الوصف، أمّا الاسمُ الموصول فإنه يدلُّ على العموم، فالتّعبير به يشملُ كلّ ما عُبد من دون اللهِ، ولا يقتصرُ على الأوثان، وهذا أيضًا سِرُّ التّعبير بالاسم الموصول مجموعًا، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لا مفردًا (الّذي)؛ لِما فيه من دلالةٍ واضحةٍ على كثرةِ المعبودات من دون الله، وهذا مما يتناسب مع صيغِ الجمع الواردة في السّياق ﴿أَوۡثَٰنٗا﴾ و﴿تَعۡبُدُونَ﴾.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع مجموعًا:

بيانٌ لاستمرارهم على تحقير عقولهم في عبادتهم لِما لا يملكُ لهم أيّ رزقٍ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أفادَ تعبيرُ القرآن عن عبادةِ المشركين للأوثان بصيغة المضارع المجموع ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ - الّتي تفيد التّجدّد والاستمرار - المبالغةَ في بيانِ عجزِ أوثانهم وعدم نفعها لهم؛ إذْ إنّها لا تملكُ لهم أيّ رزقٍ؛ رغم استمرارهم على تحقير عقولهم في الاجتماع والإجماع على عبادتها، والخضوعِ لها، والدعوةِ إليها، ومحاربةِ الحقّ في سبيلها.

أسلوبُ الإطناب بالتّكرار:

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿أَوۡثَٰنٗا﴾ بتكرير الفعل ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ وتكرير ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ للمبالغة في التشنيعِ عليهم في عبادةِ الأوثان[1]، الّتي تمثّل قمّةَ العجرِ بكونها مجرّدَ صورٍ لا روحَ فيها، وفي إعراضهم عن عبادةِ الله الّذي خلقهم وخلقَ أوثانهم.

مبالغةٌ في تشنيعِ إبراهيمَ على قومه بعبادتهم صورًا لا روحَ فيها

سِرّ النَّفي بـ﴿لَا﴾ دون (ما):

استعملَ البيانُ القرآنيُّ حرف النَّفي ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾، دون (ما) فلم يقل: (ما يملكون)؛ لأنّ من معاني ﴿لَا﴾ أنّها تُخلِّصُ المضارعَ للمستقبل بخلاف (ما) فإنّها تخلّص المضارع للحال، فيكون النّفي بـ﴿لَا﴾ أبلغَ؛ إذ يشيرُ إلى عدمِ المنفعة في الحالِ وفي المآل، فالأوثانُ لا تملكُ أنْ ترزقهم في الحال، ولا في المستقبل، فيدلّ هذا على كمالِ عجزها، وعدم نفعها، ولا أملَ لها في أنْ تَرزُقَ في المستقبل، فأفادَ النَّفي بـ﴿لَا﴾ نَفْيَ جِنْسِ مِلْكِ الأوثانِ للرّزق في كلّ وقت.

الأوثانُ لا تملكُ الرزقَ في الحال ولا في المستقبل لكمالِ عجزها

دلالة التّعبير بالمضارع مادّةً وصيغةً:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ المِلْك في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾؛ لاتّساع دلالتها؛ إذ أصلُ (مَلَكَ) في اللّغة يدلُّ على قوّةٍ في الشّيء وَصِحَّة[2]، ومن معاني المُلْكُ بضم الميم: العظمة والسّلطان، وكلُّ مَن يَمْلِكُ تكون له القدرة على احْتِواءِ الشّيْء الّذي يملكه وضَبطِه، وله الْقُدْرَةُ عَلَى الِاسْتِبْدادِ بِهِ، والتّصرّف فيه[3]، فكان نَفْيُ مِلْكِ الأوثان للرّزق نفيًا لقدرتهم وتصرّفهم، فهُم في كاملِ العجزِ والضّعف.

بيانٌ لاستمرار عجزِ أوثانهم في عدم قدرتها على الرّزق فلا تستحقّ العبادة

أمّا من حيث الصيغةُ فقد استعملَ القرآنُ صيغةَ الفعل المضارع

(1) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 20/ 212.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملك).
(3) ابن سِيْدَهْ، المحكم، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ملك).

المنفيِّ ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الّذي يدلّ على تجدّد هذا النّفي واستمراره، فعجزُ الأوثانِ الّتي يعبدونها عن الرّزق دائمٌ ومستمرّ، وهذه المعاني تتناسبُ مع السّياق الّذي يَنْعَى على المشركين عبادتهم أوثانًا عاجزةً لا تملكُ التّصرّف ولا القدرةَ على الرّزق، وفي هذا إثباتٌ لعدمِ استحقاقها للألوهيّة والعبادة.

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور على عامله:

مبالغةٌ في تصوير عجزِ الأوثان عن تمليكِ الرّزق لعابديها فضلًا عن غيرهم

الأوثانُ لا تملكُ أنْ ترزقَ أحدًا، أو أنْ تُحصِّلَ له الرّزق، ولكنَّ البيانَ القرآنيَّ لمّا قدّم الجارَّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على المفعول ﴿رِزْقًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أفادَ التّأكيدَ على نفي قدرةِ الأوثانِ على إيتاءِ الرّزق؛ إذ إنّها لا تملكُ الرّزقَ ولا النّفع لمن يتّخذُها آلهةً ويعبدُها من دون الله، ومن بابٍ أولى أنها أيضًا لا تملكُ لغيرهم ذلك الرّزق، وفي هذا مبالغةٌ في إبطال السّببِ الّذي من أجله عبدوها من دون الله، وتبكيتٌ لهؤلاء العابدين.

نكتة تخصيص الرّزق بالذِّكر:

تقريرٌ في عجزِ الأوثان عن أهمّ ما يسعى الإنسان في تحصيله لمعاشه، فضلًا عمّا هو دونه في الأهمّيّة

خَصَّ النَّظم الحكيم الرِّزقَ بالذِّكر في موضعين في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ رغم أنّ الأصنامَ لا يملكون شيئًا؛ وذلك لِمَكانةِ الرّزق مِن الخَلْقِ في معاشهم، ولكون الاحتجاجِ بعجزِ الأصنام عن الرزق أمرًا هامًّا يسعى إليه كلّ أحدٍ ويفهمه عامّتهم وخاصّتهم، فقرّر أنّ الأصنام لا تَرْزُقُ[1].

الغرض من تنكير المفعول:

تَنكيرُ المفعول به ﴿رِزْقًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ للتّعميم[2]، والتّقليل، والمعنى: لا يقدرون على أنْ يرزقوكم شيئًا من الرّزق[3]، وكون هذا التّنكير في سياقِ النَّفي فإنّه يدُلُّ على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 843.
(2) البَيضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 191.
(3) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 385.

العُموم، أي نَفْيِ قُدرةِ أوثانهم على كلِّ رزقٍ ولو كان قليلًا[1]، أي: لا يَقدِرونَ على شَيءٍ منه[2]، ولو كان غايةً في القلّة[3]، وهذا العموم يدلُّ على منتهى عجزِ هذه الأوثان وتفاهتها[4]، وفيه تعريضٌ من إبراهيم عليه السلام بقومه لعبادتهم أوثانًا في غايةِ العجز.

مبالغةٌ في تعميم نَفْيِ قُدرةِ أوثانهم على تَمَلُّكِهم أيَّ رِزقٍ

نكتةُ ثراءِ المعنى في تَنَوُّعِ إعرابِ ﴿رِزْقًا﴾:

﴿رِزْقًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ يحتملُ أنْ يكون مصدرًا مؤوّلًا، والتّقدير: لا يملكون أنْ يرزقوكم، أو مصدرًا منصوبًا وناصبه ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾؛ لأنّه في معناه، أو أنْ يكون اسمَ المرزوق، والتّقدير: لا يملكون لكم إيتاءَ رزقٍ ولا تحصيله، أو مفعولًا به لفعلِ ﴿يَمْلِكُونَ﴾، لأنّه بمعنى المرزوق[5]، وفي هذا كلّه بيانُ عجزِ الأصنام عن الرّزق بأيّ وجهٍ من الوجوه.

بيانُ عجزِ الأصنامِ عن الرّزق بأيّ وجهٍ من وجوهِ الرّزق

بلاغة العطف بالفاء:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ تفريعيّة؛ فرّعتِ الأمرَ بابتغاءِ الرِّزقِ من اللّهِ على نَفْيِ قُدرةِ أصنامِهم على كلِّ رزقٍ، وفي هذا التّفريع إبطالٌ لِظَنِّهم الرِّزقَ من أصنامِهم، أو تَذكيرٌ بأنَّ الرّازقَ الحقَّ هو اللّهُ، فابتغاءُ الرّزق منه يقتضي تخصيصه بالعبادة وحده سبحانه، كما دلّ عليه عطف ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾[6]، ويمكن أنْ تكونَ الفاءُ الفاءَ الفصيحةَ؛ لأنّها أفصحتْ عن جوابِ شرطٍ مقدَّر، تقديره: إذا عرفتم ما قلتُ لكم، وأردتم بيانَ ما هو اللّازم لكم فأقول لكم: ابتغوا عند الله الرزق[7].

تفريعٌ على إثباتِ عجزِ الأوثان عن الرّزق نتيجتُه استحقاقُ الرّزّاق الحقيقي للعبادة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 843.
(3) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 22.
(4) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 22.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 843، والهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 379.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.
(7) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 379.

وقد جاءَ العطفُ في قوله: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ نتيجةً للكلامِ السابق، أي: لَمّا أثبتَ نقص معبوداتهم بنفي الخير عنها وصرّحَ بعجزها؛ أثبتَ سبحانه اختصاصه بالخيرِ والنّفعِ والقدرةِ على الرّزق، ومِنْ ثَمّ استحقاقه للعبادة دون غيره.

سِرّ التّعبير بالابتغاء:

عادةُ اللهِ الغالبة ألّا يؤتي الرزقَ إلا بكدٍّ واجتهادٍ من المرزوق

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظ الابتغاء في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ دون غيره من الألفاظ كالطّلب مثلًا، فلم يقل: (فاطلبوا عند الله الرّزق)؛ لكون لفظِ الابتغاء أبلغَ وأنسبَ للسّياق، فالابتغاءُ هو شدّةُ الطّلبِ والاجتهاد فيه[1]، وهذا يتناسبُ مع طلبِ الرّزق؛ لأنّه سبحانه أجرى عادته أنّه في الغالب لا يؤتيه إلا بكدٍّ وجهدٍ من المرزوق؛ إمّا في العبادة والتّوكّل، وإمّا في السّعي الظّاهر في تحصيله بأسبابه الدّنيويّة[2].

الغرض من فعل الأمر ﴿فَٱبۡتَغُواْ﴾:

حضٌّ وإرشادٌ إلى ابتغاءِ الرّزق من الرّزّاق الحقيقيّ

الأمرُ بابتغاء الرّزق في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ مجازيّ غرضُه الحضُّ والإرشاد إلى طلبِ الرّزق من الرّزّاق الحقيقيّ؛ فهو سبحانه الّذي يكفيكم ويغنيكم لا تلكَ الأوثان العاجزة.

سِرّ التّعبير بالظّرف المضاف:

الرّزقُ كلّه عند اللهِ المستحقّ للعبادةِ لذاته

﴿عِندَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ ظرفُ مكانٍ وهو مجازٌ، شَبَّهَ طَلَبَ الرِّزْقِ من اللهِ بالبحثِ عن شيءٍ في مكانٍ يختصّ به، فاستعير له عند الدّالّة على المكانِ المختصّ بما يُضافُ إليه الظّرف[3]، وكونه مبتغًى عند اللهِ الجامع لكلّ صفاتِ الجلال

(1) الرّاغب، المفردات: (بغي).
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/ 546.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.

والجمال والكمال[1]؛ يستوجب أنْ يكونَ كثيرًا؛ لأنّه كلَّه عند اللّه[2]، والأمرُ بيده، إنْ شاءَ أنجحَ، وإنْ شاءَ خيّب[3]، وفي هذا إشارةٌ إلى استحقاقِ عبوديّته سبحانه لذاته[4].

دلالة (أل) في كلمة ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾:

شمولُ كلِّ أنواعِ الـرّزقِ المُبتغى عند الله وحده بـما يـدلُّ على كثرته وعظمته

(أل) التّعريف في كلمة ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ لاستغراق جنس الرّزق كلِّه، أي: فاطْلُبوا كلَّ رِزقٍ قَلَّ أو كَثُرَ مِن اللّهِ دونَ غيرِه، فإنَّه هو الرزّاقُ ذو القوَّةِ المتينِ[5]، والمُعَرَّفُ بلامِ الجنسِ في قوَّةِ النَّكرةِ في الشمول والتعميم، فكأنَّه قيل: فابْتَغوا عندَ اللّهِ أيّ رزقٍ[6]، وقد عرَّف البيانُ القرآنيُّ الرِّزقَ هنا رغم أنّه نكَّرَهَ في قوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾؛ لأنَّه أراد أنّ هذه الأوثان لا تستطيعُ أنْ تَرزقكم شيئًا مِن الرِّزقِ مهما كان قليلًا، فابْتَغوا عندَ اللّهِ الرِّزقَ كلَّه؛ فإنَّه هو الرَّزّاقُ وحْدَه، لا أحدٌ يَرزقُ غيرُه؛ فنكَّر أوَّلًا للتَّعليلِ؛ مُبالَغةً في النَّفي، ثمَّ عرَّفَ ثانيًا للاستغراقِ؛ ولدلالته على العموم، ليَشْملَ كلَّ ما يُسمَّى رِزقًا[7]، فهو تعالى عنده الأرزاق كلُّها، وهذا يدلُّ على أنّ الرّزق كلَّه مبتغًى عند اللّه وحده، بما يدلّ على كثرته وعظمته[8]، بالإضافة إلى أنّ الرّزقَ من اللّهِ معروفٌ، والرّزقَ من الأوثان غيرُ معلوم فنكّره لعدمِ حصولِ العلم به[9].

دلالة عطف العبادة على ابتغاء الرِّزق:

إيماءٌ إلى أنّ الله الـرّازقَ الـحقَّ هو من يستحقّ الـعـبـادة، وتـعـريـضٌ بعابدي مَـن لا يـرزق ولا ينفع من الأوثان

في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ عطفَ الأمر

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 413.
(2) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 387.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/ 546.
(4) الرّازيّ مفاتيح الغيب: 25/ 39.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 34.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.
(7) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 447، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 153، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 348.
(8) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 387.
(9) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 39.

بالعبادةَ على الأمر بابتغاء الرّزق عند الله؛ للإيماءِ إلى أنّه هو الرّازقُ الحقيقيُّ، وهو من يستحقُّ العبادة وحده، "فابتغاءُ الرّزق منه يقتضي تخصيصه بالعبادة"[1]، ويمكن أن يكون العطف أيضًا للتّعريض بعبادتهم الأوثانَ الّتي لا تملكُ رزقًا ولا نفعًا ولا تستحقّ العبادة، وعلى ذلك فإن اللّهَ سبحانه هو الرّازقُ المنعمُ المتفضّلُ عليهم، الّذي لابدّ أنْ يُخلصوا له العبادة، ولا يشركوا به شيئًا؛ فإنّه لا يقبلُ الشِّرك ولا الشّريك.

سِرّ وضع المضمر موضع المظهر في ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾:

الإضمار أحيانًا أعمق بلاغةً من الاسم الظاهر، لبيان أنَّ المتكلّم عنه واحدٌ لا غير

في قوله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ عبّر البيان القرآنيُّ بالضّمير (الهاء) في فعل ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾، ولم يذكر اسم الله ظاهرًا، فلم يقل: (واعبدوا الله)؛ لأنّ الإضمار في بعض الأحايين اختصارٌ لما يُلحَظ فلا يلفظ، فيكون الكلام أعمقَ بلاغةً، وأكثرَ دلالةً على أنَّ المتكلَّم عنه واحدٌ لا غير، وهو هنا أنّ الرّازقَ والمعبودَ واحدٌ، وخصوصًا إذا كان قد سبقَ ذكره من قريب، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ من يملكُ الرّزقَ هو من يستحقُّ العبادة وحده سبحانه.

سِرّ الجمع بين الشّكر والعبادة ودلالة الترتيب:

تلازمُ العبادة والشّكر معًا استحقاقٌ واجبٌ على العباد لرازقهم، ومن لا يخلص العبادة لا يخلص الشكر

جمعَ النَّظمُ الحكيم بين العبادة والشّكر في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾؛ للتّلازم بينهما، فكلاهما استحقاقٌ لله تعالى؛ لكونه ربًّا ورازقًا؛ أي إنّ الّذي يملكُ الرّزق هو إلهٌ عظيم يستحقّ إفرادَه بالعبادة الخالصة لوجهه الكريم، وكذلك يستحقّ الشّكر الخالصَ على إنعامه ورزقه سبحانه.

وقد رتّب القرآن الشّكر على العبادة في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ فأمرَ بالعبادة أولًا ثم بالشّكر ثانيًا؛ لمراعاة الأهمّ والأسبق، إذ إخلاصُ العبادة لله، والبعدُ عن الشّرك يأتي أولًا، ثم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.

يأتي بعده شكرُ اللّهِ على إنعامه وفضله، فلا يُقبلُ شكرٌ بلا عبادةٍ خالصةٍ للّه، وكأنّ شرطَ الشّكر العبادة، فتكون العبادةُ اعترافًا باستحقاق الإله للألوهيّة، ويكون الشّكرُ اعترافًا وتعظيمًا للمنعم سبحانه على إنعامه.

سِرّ تعدية الشّكر باللام في قوله ﴿لَهُۥ﴾:

تخصيصُ الشّكر لمن يستحقّه وهو الرّازقُ سبحانه

عُدّيَ الشّكرُ باللّام في قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ جرْيًا على أكثَرِ استعمالِه في كلامِ العربِ؛ لِقَصدِ إفادةِ ما في اللّام مِن معنى الاختِصاص، أي: الاستِحقاق[1]، كما أنّ في تعديةِ الشّكر باللّام ملاحظةُ إحسانِ المشكور لِما صدر عنه، أي: اجعلوا شكرَكم موجَّهًا له امتنانًا منكم على إحسانه سبحانه إليكم بالرّزق.

بلاغةُ الفصل في قوله ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

ظاهرةٌ في الاتّصال المعنويّ (التّعليل) إذ الأمرُ بعبادةِ الله وشكره معلّل بالرّجوع إليه لا إلى غيره، الّذي أغنى عن الرّابط اللّفظيّ (العاطف)

أوردَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بانفصال لفظيٍّ عن الّتي قبلها ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾؛ فلم يأتِ بينهما بحرف من حروف الوصل (العاطف) هنا؛ لِما بينهما من شبه كمالِ الاتّصال المعنويِّ؛ الّذي أغنى عن الرّابط اللّفظيّ (العاطف)؛ إذ جاءت جملة ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تعليلًا لها؛ أي: تعليلًا للأمْرِ بعبادته وشُكْرِه؛ لأنَّه هو الّذي يُجازي على ذلك ثَوابًا، وعلى ضِدِّه عِقابًا؛ إذ إلى اللّهِ لا إلى غيرِه مَرجِعُكم بعدَ الموتِ، وفي هذا إدماجُ تَعليلِ العِبادةِ بإثباتِ البعثِ[2]، والمعنى: اعبدوه وحدَه ولا تشركوا به شيئًا، واشكروا له ما خوّلكم به من النِّعم العظيمة لأنّكم إليه ترجعون.

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور على عامله:

إفادةُ حصرِ الرُّجوعِ إليه وحده لا إلى غيرِه سبحانه

تقديم الجارِّ والمجرور على عامله في قوله تعالى ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لإفادة شِدّة الاختصاص، والمعنى: الرّجوع إليه حصرًا لا إلى غيره[3]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.
(3) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة: 10/ 19.

أي: إلى الله لا إلى غيره مرجعُكم بعد الموت[1]، والمقصودُ الرّجوع إلى جزائه وحكمه[2]، وفي هذا الاختصاص تخويفٌ للمشركين من الحساب والجزاءِ، ورَدْعٌ لهم ليتوبوا عن شركهم، وتطمينٌ للمؤمنين وتثبيتٌ لقلوبهم على الحقّ، بأنّه لا حُكمَ يوم القيامة إلّا له سبحانه.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تُرْجَعُونَ﴾:

توصيفٌ للواقع، وتصويرٌ للمآل المستمرّ، وحثٌّ على تخيُّلِ الرجوع إلى الله

استعملَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ المضارع للتّعبير عن الرجوع في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ وصفًا لواقعِ الحال المتكرّر الّذي عليه الخلق، وتصويرًا للمآل بدلالة الحال المستمرّ بدوام رجوع الخلق إلى الله، وحثًّا للعباد على تخيُّل كيفيّة هذا الرّجوع إلى الله يوم البعث، ممّا يبعث في النّفس المهابةَ والاستعدادَ لهذا اليوم.

توجيهُ قراءة ﴿تَرْجِعُونَ﴾:

الرجوعُ إلى الله حاصلٌ لا محالةَ سواءٌ كان قَسْرًا أو عن إرادة

في قوله تعالى: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ قراءتان؛ قراءةُ (الجمهور) بضمِّ التّاء وفَتْحِ الجيم مبنيًّا للمفعول ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وقراءةُ يعقوب بفتح التّاء وكَسْرِ الجيم، مَبنيًّا للفاعل ﴿تَرْجِعُونَ﴾[3]، مِنْ رَجَع رُجوعًا، فالحجّةُ لمن ضَمَّ: أنّه أراد: تُرَدّون، على اعتبارِ أنّ الله أرجعهم قَسْرًا فلا يستطيعون فكاكًا، والحجّة لمن فتَحَ: أنّه أراد: تَصيرون[4]، أي: سيصير رجوعكم إلينا، وستأتوننا بأنفسكم، كأنّكم مضبوطون على ذلك، أي: سواءٌ أردتم الرّجوعَ إلى الله أم لم تريدوه فإنّكم إليه راجعون على كلّ حال.

توجيه المتشابه اللّفظيّ بين صيغتين:

من بلاغة القرآن تنوّع الأسلوب في العطف والتّعليل

في عدد من الآيات كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 226.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 348.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 669، وابن الجزريّ، النّشر، النشر في القراءات العشر: 2/ 343، والبنّا، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعةَ عشرَ، ص: 439.
(4) ابن خالَوَيْهِ، الحُجّة في القراءات السّبْع، ص: 249، وابن الجزري، النشر: 2/ 341.

﴿٢٨﴾ [البقرة: 28]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [الروم: 11]، وقوله: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾ [الزمر: 44] أتى البيان القرآنيُّ بحرف العطف (ثُمَّ)، بينما في قوله هنا في سورة العنكبوت قال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فلم يأتِ بالعاطف (ثُمَّ)؛ لأنّ قوله: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ في آية العنكبوت جاء تعليلًا لِما قبله، أي: تعليلًا للأمْرِ بعِبادتِه وشُكْرِه؛ والتّعليل لا يُفصل بينه وبين المُعَلَّل بفاصل قاطع للصّلة بينهما، فكان المعنى: اعبدوه وحده واشكروا له لعلّةٍ مهمّةٍ هي أنّكم إليه تُرجَعون، ولهذا لم يأتِ معطوفًا على ما قبله، فلم يذكر (ثُمَّ) العاطفة المفيدة للتّراخي الّذي يومِئُ بنوعٍ من الفَصل، أمّا في الآيات الأخرى فقد جاء قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: 28] معطوفًا على ما قبله بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ [البقرة: 28] الّذي يفيد التّراخي إذ ليس ثمّةَ حاجةٌ للتّعليل.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأوثان والأصنام:

الوثنُ أعمُّ من الصَّنم إذ يُطلق على كلّ ما يُعبدُ من دون الله

بين الوثنِ والصَّنمِ عمومٌ وخصوص؛ إذ الْوَثَنُ أخَصُّ من الصَّنَم؛ من جهة أنَّ الصَّنَمَ يُطْلَقُ على حِجارَةٍ غَيْرِ مُصَوَّرَةٍ، مِثْلِ أكْثَرِ أصْنامِ الْعَرَبِ، كما يُطلقُ على المصوَّرَة كأصْنامِ قَوْمِ إبْراهيمَ[1]، ومن جهةٍ أخرى أنّ الصَّنمَ هو المصنوعُ من حِجارةٍ وغَيْرِها كالخشب والذّهبِ والفضّة وغيرها من جواهرِ الأرض، والوَثَنُ: ما يُتَّخَذُ مِنْ جِصٍّ أوْ حِجارَةٍ[2].

والصَّنمُ: أخصُّ من الوثنِ من جهةِ أنّ الصَّنمَ ما كانَ لَهُ جسمٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 225.

(2) القُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 335، وابن منظور، لسان العرب: (صنم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (وثن).

أو صورَةٌ، فإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ جِسْمٌ أو صورَةٌ فهوَ وثَن[1]، فالوثنُ هو كلّ معبود من دون اللّه سواءٌ أكان مجسّدًا على صورة أم على غيرها، فيُطلق الوثنُ على الصليب وعلى القبر إذا عُبدَ من دون اللّه[2]، وقيل: الصَّنمُ: شيءٌ من الحجارةِ يُصنع على مثالٍ حيّ، أمّا الوثنُ: فهو قطعةٌ من حجرٍ خامٍ لم يُشَكَّلْ[3].

ومن العلماء مَن لم يُفرّق بين الوثن والصّنم، واستعمل أحدهما موضع الآخر[4]، ودليلهم أنّ القرآن في قصّة إبراهيم عليه السلام؛ سمّاها مرّة أصنامًا، ومرّة أخرى سمّاها أوثانًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ [العنكبوت: 25]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشّعراء: 71].

واستعمالُ الأوثان في الآية هنا جاء مقابلَ قوله لهم: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾، فالآياتُ هنا جاءتْ عامّةً تتحدّثُ عن نَعْيِ إبراهيم على قومه لعدمِ عبادتهم اللّه وعبادتهم غيرَه عمومًا، أمّا في الشّعراء فقد جاءت قصّة إبراهيم مفصّلةً، واستعمالُ الأصنام جاء مقابل سؤاله لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء: 70] فكان جوابُهم أنّها أصنامٌ منحوتة.

الخَلْقُ والصُّنع:

الخَلقُ أبلغُ من الصُّنع؛ إذ أصلُ الخَلْقِ هو إبداعُ الشّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، وإحداثُه بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُنْ، وليس الخَلْقُ الّذي هو الإبداعُ إلّا للّه تعالى[5]، والخَلْقُ للإنسان يأتي بمعنى التّقدير، وبمعنى

الخَلْقُ أبلغُ من الصُّنعِ ويتناسب مع عِظَمِ افتراءِ المشركين في عبادتهم الأوثان

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صنم).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وثن).
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 6/ 3735.
(4) مثلًا يقول الطَّبريُّ: "الأصنام: جمع صنم، والصّنم: التِّمثال من حجر أو خشب أو من غير ذلك في صورة إنسان، وهو الوثن، وقد يقال للصّورة المصوَّرَة على صورة الإنسان في الحائط وغيره: صنمٌ ووثنٌ"، يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 11/ 469.
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (خلق)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 566.

الاختلاق وهو الكذب[1]، وأمّا الصُّنْع: فهو عملُ الشّيء بحِذْق[2]، وإجادةُ الفعل، ولا يقال: صُنْعٌ إلا للحاذق المُجيد[3]، وقد ناسب هنا التّعبير بلفظ ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ ولم يقل تصنعون؛ لأنّ الخَلْقَ أبلغُ، فالخَلْقُ هنا معناه الاختلاقُ والكذبُ والصُّنع والوضع والاختراعُ؛ فالكاذبُ يَخْلُقُ خَبَرًا لَمْ يَقَعْ، ويخترعُ أقوالًا غير موجودة، وهذا يتناسبُ مع عِظَم جرم المشركين وافترائهم الكذبَ على اللّه في اتّخاذهم شركاءَ مع اللّه، وعبادتهم الأوثان.

الإفْك والكذب:

الإفكُ أبلغُ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل: هو البُهتان، لا تشعرُ به حتّى يَفْجَأكَ[4]، والإفكُ أشدُّ وأسوأُ الكذب والاختلاق[5]؛ فهو تعمّدُ الكذبِ الّذي يقلبُ الحقائق، وأصله الانقلاب، وقيل للكذبِ إفكٌ؛ لأنّه يُغيّرُ الواقعَ ويقلبُ الحقيقةَ، ويصرفها من الحقّ إلى الباطل[6]، فالإفكُ يُستعملُ في التّلبيسِ والشّرّ وقلبِ الحقائق، وفي الاستعمالِ القرآني أُطلِق الإفكُ على الكذبِ الفاحشِ القبيح، مِثْلِ الكذبِ على اللّه ورسوله، ومِثْلِ قذفِ المُحْصَنات[7]، بينما الكذبُ هو خلافُ الصِّدق[8]، والإخبارُ بخلافِ الحقيقة والواقع، فالكاذبُ هو الّذي يخبرُ بخلاف ما هو عليه في الواقع[9]، ومن هنا ناسبَ استعمالُ الإفكِ السّياق في الآية؛ لأنّ السّياقَ تحدّث عن أعظمِ الذنوبِ وهو الإشراكُ

الإفـــكُ أشـدُّ وأســوأُ الكـذب فـهـو تـعـمّـدُ الـكـذبِ وصـرفٌ لـلـحـقـائـق عن وجهها

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (خلق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنع).
(3) الرّاغب: المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (صنع).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 160.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 19/ 69، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11541، ومَجْمَع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 429.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أفك)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 101.
(7) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 45، والبَغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 392.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كذب).
(9) مَجْمَع اللّغة العربيّة في القاهرة، المعجم الوسيط: (كذب).

باللّه، واختلاقُ عبادةِ الأوثان، وهذا درجته أشدُّ وإثمهُ أعظمُ من مجرّد الكذب.

الشّكر والحمد:

عبّر البيانُ القرآنيّ بالشّكر دون الحمد في قولِه تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾، ولم يقل: (واحمدوا له)؛ كونه أنسبَ للسّياق الّذي يتحدّث عن الرّزق ووصول النّعمة للمرزوق، إذ الشّكرُ يختصّ بما كان مقابلَ نعمةٍ معيّنة مُسداة، فهو عبارةٌ عن تعظيم الفاعل لأجلِ إنعامٍ وصلَ إليه[1]، ويكون باللسانِ والجوارحِ والجَنان[2]، كما أنّ الشّكرَ ضِدّ الكفر[3]، وليس كذلك الحمد، إذ الحمد ثناءٌ على المحمود بجميل صفاته، سواء تعلّق بالفضائل مثل كونه سبحانه عليمًا حليمًا حكيمًا، أم بالإفضال كالرّزق والإنجاء والإغاثة، ويمكن أنْ يكون المقصود بالشكر عبادته سبحانه وحده، أي: واعبدوه ولا تكفروا به، والسّياقُ هنا يدلّ على ذلك؛ فالآياتُ السّابقة تتحدّث عن توبيخ المشركين لأنّهم يعبدون أوثانًا من دون اللّه، فناسبَ استعمالُ لفظِ الشّكرِ تأكيدَ إيمانهم وعدمَ كفرهم باللّه، وأن يكون شكرُهم له سبحانه منوطًا بما خوّلهم به من النّعم العظيمة.

الشكر ما كان مقابل نعمةٍ مُعيّنة، فهو أخصُّ من الحمد الّذي هو ثناءٌ على المحمود بجميل صفاته

(1) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/ 19.
(2) السّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: 1/ 450.
(3) الشّاطِبيّ، الموافقات: 4/ 220، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 39.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»